دور الشباب في العمل التطوعي وقيم التكافل الاجتماعي

"زيارة الاربعين انموذجاً"

الاستاذ المساعد الدكتور

وليد عبد جبر الخفاجي

كلية الآداب - جامعة واسط

drwaleedjbr@gmail.com

الملخص

إنَّ الانسان بطبيعة تكوينه له حاجات مادية ومعنوية يحاول جاهداً اشباعها، وتتفاوت قدرات افراد المجتمع في اشباع تلك الحاجات، لذلك تحث الشريعة السمحاء على ضرورة تحقيق الترابط والتماسك بين افراد المجتمع من أجل تحقيق التكافل الاجتماعي. فكل إنسان عنده رغبة ذاتية للعطاء المجاني، والجميع لهم القدرة على تقديم مساهمات ايجابية من تربية ورعاية لفئات من الأيتام والمحرومين.

ويهدف البحث تسليط الضوء على دور الشباب في الاعمال التطوعية كونهم عماد عملية التنمية وقوة المجتمع الاقتصادية في ترسيخ قيم التكافل الاجتماعي، وتتجسد اهمية البحث في إبراز دور الشعائر الحسينية وخصوصاً زيارة الاربعين في تجسيد أروع صور العمل الطوعي التي تحقق سنوياً صوراً رائعة للانسجام والتكافل الاجتماعي التي يشكل الشباب ركيزتها الاساسية. ويسعى البحث جاهداً الى وضع عدة مقترحات تساهم في تعضيد دور الشباب في إحياء الشعائر من خلال الاعمال الطوعية والاسهام في تحقيق التكافل الاجتماعي للفئات الفقيرة في المجتمع.

الكلمات المفتاحية: الشباب، العمل التطوعي، التكافل الاجتماعي، زيارة الاربعين.

Youth's Role in Voluntary Work and Values of Social Solidarity

Assist. Prof. Dr.

Waleed Abd Jabr Al-Khafaji

College of Arts - Wasit University

Abstract

The human being, by the nature of his formation ، has physical and psychological needs that they tries hard to satisfy. The capabilities of the society members vary in regard satisfying those needs. Therefore, ، the Islamic Sharia urges the necessity of achieving coherence and cohesion among the members of society in order to achieve social solidarity. Every person has a personal desire for free giving. Everyone has the ability to make positive contributions such as raising and taking care for groups of orphans and the deprived ones.

The research aims to shed light on the role of youth in voluntary work since they are the pillar of the development process and the economic strength of society in consolidating the values of social solidarity. The importance of the research is embodied in highlighting the role of Husseini rituals ، especially the Arbaeen pilgrimage، in embodying the most wonderful types of voluntary work, which annually produce wonderful images of harmony, and social solidarity whose youth constitute their main pillar. The research endeavors to develop several proposals that contribute to support the role of youth in ritual commemoration through voluntary works and contribute to achieve social solidarity for poor groups in society.

Keywords: youth, volunteer work, social solidarity, the Arbaeen visit.

المقدمة

إن ثقافة العمل التطوعي لم تشغل مساحة كبيرة من اهتمامات المجتمع العراقي، الا انه كان لها النصيب الاوفر حظاً عن طريق استثمار زيارة الاربعين للإمام الحسين عليه السلام في الترويج لهذه الظاهرة واهميتها في ترسيخ قيم التكافل الاجتماعي من خلال تقديم الخدمات للزوار على اختلاف مشاربهم ومساعدة الفئات الضعيفة في المجتمع، مما يؤدي الى إبراز دور الشباب في ترسيخ روح العمل التطوعي وقيم التكافل الاجتماعي، فالعمل التطوعي يُعد ثروة مهمة من الثروات التي تسعى دول العالم المتقدم لاستثمارها. فالمشاركة في الأعمال الخيرية وترسيخ قيم التكافل الاجتماعي هي مطلب ديني، كما أنها حاجة إنسانية وضرورة اجتماعية. ما نريده هو أن نجعل هذه الممارسات التطوعية الخيرية، ظاهرة ثقافية، واجتماعية، ووطنية عامة.

إنَّ ظاهرة العمل التطوعي وبث قيم التكامل وكيفية ترسيخها ونشرها من خلال زيارة الاربعين المليونية العالمية تعد مسؤولية اجتماعية، إذ انها تعد من الموضوعات المدنية التي لم تشغل حيزاً كبيراً في المجتمع العراقي لا على مستوى التنظير، ولا على مستوى العمل الا في حدود ضيقة، وهي من الموضوعات والمبادرات المجتمعية وتنظيم وتنشيط العمل التطوعي، لأهمية هذا الموضوع من الناحية الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية.

موضوع البحث

إن العمل التطوعي هو نشاط اجتماعي مجاني يقوم به الأفراد من تلقاء أنفسهم، بشكل فردي أو جماعي، وذلك من خلال التبرع بجزء من الوقت، أو الجهد، أو المال، أو الخبرة، وهو لا يقتصر على حقل اجتماعي محدد، بل، يشمل الحقول الاجتماعية والإنسانية والخدمية جميعها مثل الخدمات العامة، والتعليم، والصحة، والتنمية الاجتماعية، والمساعدات العينية، والاهتمام بذوي الاحتياجات الخاصة: كالأيتام، والأرامل، والمعاقين، وغيرهم.

وبالتالي، فالعمل التطوعي، بالفعل، يُعد ثروة مهمة من الثروات التي تستثمرها دول العالم المختلفة، وتخصص لها برامج وخطط استثمارية سنوية، وهناك مئات الآلاف من مواطنيها يعملون بشكل مباشر أو غير مباشر في حقل العمل التطوعي، وهذا يعد احد سبل علاج البطالة.

أهمية البحث

تتجسد أهمية البحث في ابراز حالة التسامي الانسانية وروح الايثار لظاهرة العمل الطوعي التي هي نتاج للانعكاسات الفريدة من نوعها التي أحدثتها زيارة الاربعين المليونية على الروح والنفس البشرية من النواحي كافة، لما تلهمه هذه الشعيرة المقدسة من الانجذاب الروحي لصاحب الذكرى الامام الحسين عليه السلام خاصة ولأصحابه الافذاذ عامة، وان ثقافة العمل التطوعي تعد دليلا على يقظة

المجتمعات الانسانية وشعورها بأهمية دورها البناء تجاه ابنائها، فنشر هذه الثقافة بين أفراد المجتمع يعد من الركائز الرئيسة لتماسك هذا المجتمع وغرس القيم النبيلة فيه، لما لها من انعكاسات ايجابية على بناء عقيدة الامة والقيم والاخلاق.

أهداف وتساؤلات البحث

وتكمن تلك الاهداف والتساؤلات في الآتي:

١. هل يعد العمل التطوعي وترسيخ روح التكافل الاجتماعي حقاً ثروة مجهولة في بلادنا، وما المقصود من العمل التطوعي بشكل عام؟
٢. هل يشكل الشباب مصدراً مهماً للترويج لمفهوم العمل التطوعي وثقافته وقيم التكافل من خلال زيارة الاربعين؟
٣. هل بالإمكان ان نساهم في اعطاء تصور عن مدى اتساع رقعة هذه الظاهرة على المستوى العالمي؟

منهجية البحث

المنهج هو نظام من القواعد الصريحة الواضحة والإجـراءات التي يُبنى عليها البحث، وتقوّم ادعاءات المعرفة بناءً عليها. كما يُعرّف الإطار المنهجي بأنه طريقة من طرائق البحث تتألف من مراحل عدة، يسير البحث العلمي المنتظم بحسبها عند بحثه أي مشكلة أو مسألة أو فرضية ما. واستخدم الباحث منهجين علميين للإحاطة بمشكلة البحث وهي كالآتي:

١. **المنهج الوصفي التحليلي:**

إن الاسلوب الوصفي الاثنوجرافي يعرف بانه تلك الصيغة البحثية التي تستهدف الوصف الكمي او الكيفي لظاهرة اجتماعية، او مجموعة من الظواهر المترابطة، من خلال استخدام الادوات المعرفية لجمع البيانات[١].

ويَعد بعض العلماء أنَّ المنهج الوصفي يجب ان يكون قاصراً او مختصاً ببحث الظواهر في الوقت الحـاضر[٢]، وان الباحث من خلال استخدامها المنهج تسجل وتصف مظاهر السلوك ذات الدلالة الثقافية في مجتمع الدراسة، وإن هذا يتطلب قضاء فتره طويلة في الدراسة العميقة كما يتطلب الاقامة في المجتمع المدروس ومعرفة لغته[٣].

وتتميز الدراسة الوصفية بانها تستطيع ان تغني المعلومات والبيانات المتوفرة عن موقف اجتماعي، او ظاهرة اجتماعية بحيث توفر الظرف العلمي الملائم لدراسة اكثر عمقاً، وتتميز بشموليتها، واتساع إطارها وتركيزها على جمع المعلومات الممكنة حول موقف معين وفق إطار محدد،وهذا يعني إنها تستطيع إن تفرز مشكلات جديدة للبحث وان تنمي الاطر النظرية والمفاهيم القائمة.

٢. **المنهج المقارن:**

يستعمل هـذا المنهج في دراسـة المقـارنة بين المجتمعات المتباينة أو الجماعات المختلفة التي تعيش في مجتمع واحد لتوضيح أسباب الشبه والاختلاف

بين المجتمعات والجماعات وأول من استعمل هذا المنهج علماء اللغة في القرن الثامن عشر عندما قاموا بدراسة عدة لغات بغية المقارنة بينها والتوصل إلى الصفات المشتركة التي تربطها والتي تشير إلى اشتقاقها من أصل لغوي واحد، واستعمل هذا الاصطلاح خلال القرن التاسع عشر لتوضيح الطريقة التي تستطيع استخراج أوجه الشبه بين المؤسسات الاجتماعية لاقتفاء جذورها المشتركة[٤].

كما أنَّ هذا المنهج يقارن ويحدد ويميز الضروري من غيره واكتشاف العوامل الكامنة والضرورية لإحداثها[٥].

ويستخدم هذا المنهج في مقارنة ظاهرة اجتماعية بظاهرة اجتماعية في المجتمع نفسه ولكن عبر مراحل زمنية مختلفة[٦].

العمل الطوعي وقيم التكافل الاجتماعي

- مقاربة ومقارنة -:

ساهمت زيارة الاربعين في زيادة نسبة الوعي الاجتماعي في ترسيخ ثقافة العمل التطوعي وافشاء قيم التكافل الاجتماعي بين مكونات المجتمع وخصوصاً الفئات الهشة فيه، ويعد العمل التطوعي من سمات الروح الانسانية العالية التي تؤثر الصالح العام على الصالح الخاص، وإفشاء قيم الاسلام الحنيف التي تسهم في تقوية الأواصر الاجتماعية والتماسك الاجتماعي بين مكوناته المتنوعة، وسوف نعرض في هذا المحور عدة صور للعمل التطوعي من مجتمعات مختلفة.

فمن خلال ما نسمع ونقرأ ونطالع عن المشاركات الكبيرة في العمل التطوعي في البلدان المتقدمة تنموياً، كأوروبا الغربية وأمريكا واليابان، وغيرها من البلدان، ويمكننا ان نعطي تصوراً عن مدى حجم هذه الظاهرة في تلك البلدان. فالعمل التطوعي يحظى في البلدان المتقدمة تنموياً بأهمية بالغة، وهناك إحصاءات وأرقام تصاعدية مختلفة بخصوص المؤسسات المدنية وعدد المتطوعين في هذه الدول، فبعض هذه الإحصاءات يؤكد أن حوالي (٩٣) مليون أمريكي أي نسبة ٣٠٪ من مجمل الأمريكيين، يعملون في العمل التطوعي، وينفقون سنوياً (٢٠) بليون ساعة في العمل التطوعي لصالح الأطفال والفقراء والتعليم وقضايا أخرى.

كما يقدر معدل التبرع المالي لكل أمريكي (٥٠٠) دولار سنوياً، وقد تبرع الأمريكي (تيد تورنر) مؤسس الشبكة الإعلامية بثلث ثروته إلى المنظمات الإنسانية في الأمم المتحدة ويساوي مبلغ مليار دولار أمريكي. وفي بريطانيا يوجد أكثر من (٢٠) مليون شخص من البالغين يمارسون نشاطاً تطوعياً منظماً. أما في فرنسا فقد جاء في تقرير لجمعية فرنسا للشؤون الاجتماعية أن (١٠) ملايين ونصف المليون فرنسي يتطوعون في نهاية الأسبوع للمشاركة في تقديم خدمات اجتماعية مختلفة تخص الحياة اليومية من مجالات التربية والصحة والبيئة والثقافة وغيرها.

وتتراوح أعمار ٥١٪ من المتطوعين ما بين الخامسة والثلاثين والتاسعة والخمسين عاماً، ويمثل الطلبة

نسبة ٢١٪ وتتراوح أعمار المتطوعين منهم ما بين ١٨ و ٢٥ عاماً[٧].

ويشكل العمل التطوعي في هذه البلدان، لاسيما أمريكا وأوربا الغربية جزءاً مهماً من الميزانية العامة، فقد أشار تقرير معهد «هدسون للازدهار العالمي» ونشرته صحيفة «الشرق الأوسط» الثلاثاء ١٨ أبريل ٢٠٠٦ العدد ١٠٠٠٣ إلى أن نصف مواطني الولايات المتحدة يقومون بأعمال تطوعية، ويقدّر التقرير أن التطوع للمشاريع الخيرية يصل إلى ١٣٥ ألف ساعة سنوياً، أي أن تلك الساعات إذا ترجمت إلى مبالغ فإنها تصل قيمتها إلى ٤ مليارات دولار. وبدأ العمل التطوعي، منذ أمد بعيد، يحظى بالأهمية نفسها في الدول العربية والخليجية، فهناك الكثير من المشاريع التطوعية التي تدعمها الحكومات الخليجية، منها مشروع «طبق الخير» في الإمارات العربية، وهو مشروع يهدف إلى فتح آفاق جديدة للعمل التطوعي المبدع واستنفار المجتمع للإسهام الفعال في العمل الخيري، وخصصت ريع هذا المهرجان من أجل كفالة الأيتام في الوطن العربي والعالم الإسلامي والإسهام في عمل الخير لإغاثة منكوبي الكوارث الطبيعية والمحن في العالم[٨].

ومشروع «جائزة البر» الذي تأسس في الأول من أكتوبر من ١٩٩٧ وذلك بمناسبة اليوم العالمي للمسنين، ويتأهل لهذه الجائزة كل من يقوم ببر والديه الذين تجاوزا ٦٠ عاماً، ويعاني أحدهم من العجز أو كلاهما ويعيشان معه أو معها في الدار نفسه، كما يتأهل للجائزة الابن البار الذي حرص على المداومة على زيارة أحد والديه أو كليهما لمن اضطرتهم ظروف حالتهم الصحية للبقاء في مركز صحي أو مستشفى لتلقي العلاج والعناية الصحية. ومشروع «جائزة الأسرة المثالية» الذي يهدف إلى تكريس قيمة الأسرة القوية المتماسكة واعلائها التي تأخذ بأسباب العلم والعمل وخدمة الوطن وتحافظ في الوقت نفسه على القيم، حيث يتم اختيار ثلاث أسر مثالية من الدولة، ويتم تكريمها معنوياً ومادياً خلال احتفالات الاتحاد النسائي بيوم الأسرة العربية. وفي التجربة السورية، هناك سعي لنشر ثقافة التطوع حيث يوجد أكثر من ١٤٠٠ منظمة تطوعية من جمعيات ومؤسسات أهلية تتنوع أنشطتها في مجالات مختلفة من حيث الصحة والشباب والبيئة[٩].

المنظور الاسلامي للعمل التطوعي:

وهنا نطرح تساؤلاً عن اهم المصادر الشرعية في الترويج لمفهوم وثقافة العمل التطوعي في العراق؟

لا يوجد كتاب في العالم كله، يرشد، ويحث، ويعطي الأجر الدنيوي والأخروي، كالقرآن الكريم والسنة النبوية، وهناك الكثير من الآيات التي تحث على العمل التطوعي، وعلى عون الآخرين ومساعدتهم، منها: قوله تعالى ﴿**ومن تطوع خيراً فهو خير له**﴾[١٠].

وقوله تعالى ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾[١١].

وقوله ﴿**وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى**

والمساكين وابن السبيل﴾[١٢].

وغيرها من الآيات الكريمة التي ترشد وتحث على فعل الخير. إذ لا يكفي الإيمان وحده ما لم يقترن بعمل صالح، لأن الإسلام دين حياة وعمل وليس مجرد طقوس يؤديها الفرد ليس لها علاقة بواقعه ومجتمعه.

ويقدس الإسلام عمل الخير مهما كان صغيراً، ولو كان بمقدار ذرة كما في قوله تعالى: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره... ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾[١٣].

وبذلك لن يكون بمقدور أي أحد أن يقول مثلا أنا فقير لا يمكنني أن أقوم بفعل الخير، أو يظن بأن فعل الخير إنما يقتصر على الأغنياء وأصحاب الأموال الطائلة، كلا، إن فعل الخير يمكن أن يكون بتقديم رغيف خبز لمحتاج أو حتى مجرد تمرة أو أقل من ذلك. ومن لا يملك مالاً بوسعه أن يقول كلمة يحض فيها الآخرين على العطاء كما بوسعه أن يقدم وقته وجهده ويساهم في العمل التطوعي الخيري. ليس هذا فحسب، فهنا أريد أن أؤكد حقيقية قرآنية، وهي أن العمل التطوعي في القرآن ليس عملاً إنسانياً تطوعياً، إن شاء الإنسان عمله، وإن شاء رفضه، لا بل هو واجب شرعي وأخلاقي في كثير من الحالات، وقد أشارت الآية الكريمة ﴿**وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم**﴾ إلى هذا المعنى الإلزامي في العمل التطوعي.

وفي السنة النبوية، هناك المئات من الأحاديث الصحيحة والمتواترة التي تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك على العمل الخيري والتطوعي منها: «خير الناس أنفعهم للناس» والحديث يشير إلى نفع الناس أجمعين، وليس نفع المسلمين فقط[١٤].

و«المال مال الله والناس عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله» و «إن لله عباداً اختصهم لقضاء حوائج الناس، حببهم للخير وحبب الخير إليهم، أولئك الناجون من عذاب يوم القيامة» و «لأن تغدو مع أخيك فتقضي له حاجته خير من أن تصلي في مسجدي هذا مائة ركعة» و «ما زال جبريل يوصيني على الجار حتى ظننت انه سيورثه»[١٥].

لماذا يمكن أن يتطوع الناس؟ بتعبير أدق، ما الفوائد التي يمكن أن يجنيها المتطوع؟

لا شك، إطلاقاً، أن العمل التطوعي عمل إنساني محض، وفوائده كما تعود على الفئات المستهدفة منه، فأنها أيضاً، والقدر نفسه، وربما أكثر من الناحية الواقعية والنفسية تعود على المتطوعين أنفسهم، فقد قال تعالى: ﴿فمن تطوع خيراً فهو خير له﴾، وهي إشارة واضحة إلى فائدة التطوع النفسية الكبيرة للمتطوع، فالمتطوع الذي تنازل عن أجره بإرادته واختياره، يحصل على الأجر والثواب الجزيل الذي لا يحصى ولا يعد من الله عز وجل، ليس ذلك في الآخرة، وحسب، بل، في الدنيا؛ فالجزاء الدنيوي والرعاية الإلهية تحيط بكل عامل خير ومتبرع، وقد

روي عن نبينا محمدﷺ قوله: «من قضى لأخيه المؤمن حاجة كان كمن عبد الله دهراً»، وعنهﷺ أيضاً قال: «من مشى في عون أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهد في سبيل الله». وقال الإمام الصادقؑ: «قضاء حاجة المؤمن أفضل من ألف حجة متقبلة بمناسكها وعتق ألف رقبة لوجه الله»(١٦).

وقد وجد العلماء أن التطوع للعمل الخيري هو وسيلة لراحة النفس والشعور بالاعتزاز، وبالتالي، فالمشاركة في الأعمال الخيرية هي مطلب ديني، كما أنها حاجة إنسانية، وضرورة اجتماعية. لذا يمكن أن نشارك في الأعمال الخيرية بما نستطيع، وبأي صورة ممكنة، وبأي لون من ألوان المشاركة ... فهذا من أفضل الأعمال المندوبة عند الله سبحانه وتعالى، والمحبوبة عند الناس. والعمل التطوعي هو أيضاً دافع أساسي من دوافع التنمية بمفهومها الشامل اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً ودليل ساطع على حيوية المجتمع واستعداد أفراده للتفاني والتضحية، وهو أيضاً نوع من الاختبار الحر للعمل، وقناعة لمشاركة الأفراد طواعية في العمل من واقع الشعور بالمسؤولية.

وبدأنا نلاحظ أن الإنسان المتطوع يكتسب أهمية كبيرة في المجتمعات لكثير من الأسباب أهمها: أنه ينمي الجانب الإنساني للمجتمع الذي يساهم في التعامل والتراحم بين الناس ويتيح الفرصة إلى التعرف على احتياجات المجتمع، ويزيد من قدرة الإنسان على التفاعل والتواصل مع الآخرين وينمي الحس الاجتماعي لدى الفرد المتطوع. ويمنحه الثقة بالنفس واحترام الذات ويساعده على ترجمة مشاعر الولاء والانتماء إلى واقع ملموس ويساعد على استثمار الوقت. وتكمن أهمية هذا العمل للإنسان في سن الشباب كونه يعزز انتماءهم ومشاركتهم وينمي مهاراتهم وقدراتهم الفكرية والفنية والعلمية والعملية ويتيح لهم المجال للتعبير عن رأيهم في القضايا التي تهم المجتمع والمشاركة في اتخاذ القرار.

أشكال العمل التطوعي:

هناك من يميز بين شكلين رئيسيين من العمل التطوعي، وهما(١٧):

١. العمل التطوعي الفردي: وهو ذلك العمل التطوعي الذي يمارسه الفرد من تلقاء نفسه وبرغبة منه وإرادة، ولا يبغي منه أي مردود مادي، ويقوم على اعتبارات أخلاقية أو اجتماعية أو إنسانية أو دينية، مثل أن يخصص جزءاً من واردات عمله إلى مجموعة من الأطفال بشكل شهري أو دوري، أو يخصص طبيب من الأطباء جزءاً من وقته في عيادته لمعالجة مجموعة من المرضى الفقراء مجاناً، أو يخصص معلم من المعلمين يوم الجمعة لتعليم الأطفال مجاناً.
٢. العمل التطوعي المؤسسي: وهو أكثر تقدماً من العمل التطوعي الفردي وأكثر تنظيماً وأوسع تأثيراً في المجتمع، حيث ينتظم مجموعة من المتطوعين في إطار مؤسسة مدنية، ويقدمون خدماتهم من خلال هذه المؤسسة، مثل جمعية الهلال الأحمر، أو مؤسسات المجتمع المدني المختلفة.

وهنا يتبادر سؤال الى الاذهان وهو: هل يفشل العمل التطوعي؟

لا يوجد عمل تطوعي فاشل أبداً، لان العمل التطوعي هو عمل خير، وعمل الخير لا يرجو الربح والمكسب المادي، ولكن هناك أخطاء في آليات التعامل مع العمل التطوعي، ومن أهم الأخطاء هو تكريس العمل التطوعي لخدمة الذات، فكل من يعمل في مجال العمل التطوعي بمفرده أو في إطار مؤسسة تطوعية ويريد أن يحقق مكاسب شخصية فإنه يفشل حتماً؛ لأن الناس عندما يشعرون أن القائم أو المنظم للعمل الخيري، هو من المستفيدين منه لا يتفاعلون معه، فلو شعر المتبرع الميسور أن الأموال لا تذهب إلى المستحقين، وأن القائم بالأعمال التطوعية أو المنسق يأخذ جزءاً من هذه الأموال فانه لا يتعامل معه. وخير دليل الجهود التطوعية التي تبذل في الزيارة الاربعينية، والتي أثبتت نجاحها الساحق في تنمية ثقافة العمل التطوعي وترسيخ قيم التكافل الاجتماعي بين مكونات المجتمع العراقي المختلفة. وأيضاً ربط العمل الخيري والتطوعي بالعمل السياسي والحزبي، بمعنى أن يكون العمل الإنساني واجهة أو يافطة يستفيد منها السياسي لأجل تحقيق أغراضه السياسية، فالبعض يضع رجلاً في العمل الإنساني ورجلاً أخرى في السياسة، وعلينا، كعاملين في الحقل الإنساني والخيري، أن نكون حذرين كي لا نقع في خطأ الخلط بين ما هو سياسي وبين ما هو عمل إنساني إغاثي، لان الناس – عادة – يريدون ويتعاطفون مع من يعطيهم دون أن يكون له أدنى منفعة أو مصلحة، ولو كانت تلك المنفعة هي صوته الانتخابي[١٨].

في الدول المتقدمة اليوم، يسهم الجميع في مسؤولية مواجهة أعباء الحياة والمشاركة في بناء المشاريع والمؤسسات الخلاقة والمنتجة من مستشفيات ومدارس وجامعات، وهيئات اجتماعية وجمعيات خيرية تعاونية في مختلف حقول الحياة. ومهما بلغت ثروات الدول الغنية، فإنها لا تستغني عن الجهود التطوعية لمواطنيها أبداً. وإذا كانت الدول الغنية تحتاج إلى هذا الكم الهائل من المتطوعين.

أهمية العمل التطوعي في زيارة الاربعين:

علينا أن نفهم أن المجتمع العراقي ليس مجتمعاً مغلقاً أو معزولاً على ذاته مثل بعض المجتمعات التي توصف بالانغلاق والانعزال، إنما هو مجتمع علاقات وروابط متينة، وهي نقطة جوهرية ومرتكز قوي لتنشيط ثقافة العمل التطوعي، فالمجتمع العراقي كان وما زال يمارس العمل التطوعي بإشكاله المختلفة، ويندفع إليه، كلما وجد فرصة لذلك. هناك الكثير من الأعمال التطوعية الخيرية التي يقوم بها الناس يومياً، بهدف مساعدة الآخرين وتقديم العون لهم، ليس هذا المستوى الفردي فحسب، بل، على المستوى الاجتماعي، فالمناطق العشائرية والريفية تشهد على الدوام أنواعاً مختلفة من العمل التطوعي، ومعروف حتى اليوم أن من يريد أن يبني بيتاً في

الريف العراقي، ينتخي بأقربائه وأصدقائه وجيرانه فينتخون له ويساعدونه في بناء بيته، فمنهم البناء ومنهم العامل.

يعد التطوع نوعاً من المبادرة الانسانية وممارسة ايجابية نعيشها في الحياة اليومية وجهداً مبذولاً سامياً من أجل منفعة الخير، وللعمل التطوعي أهمية في حياة المتطوع من ناحية تطوير قابلياته وتحفيز قدراته الكامنة وتنميتها، ويدعم العمل الحكومي ويرفع مستوى الخدمة الاجتماعية[١٩]. إذن، ما نريده هو أن نجعل هذه الممارسات التطوعية الخيرية ظاهرة ثقافية واجتماعية ووطنية عامة، لا تخلو منها التجمعات الإنسانية، سواء في الريف أو في المدنية، وسواء بين الأحياء الفقيرة أو الأحياء الغنية، وسواء في البيت والمدرسة أو في الشارع. ونستطيع أن نترجم ثقافة العمل التطوعي إلى حقائق ملموسة يشعر المواطن العراقي بوجودها، كجزء من مؤسسات تعمل لخدمته، عندما نؤمن بأهمية العمل التطوعي في بناء قيم الدولة ومؤسساتها، علينا أن نضع بنظر اعتبارنا، كيف يمكن أن نترجم هذه الثقافة إلى واقع ملموس يشعر بها المواطن ويدافع عن وجودها؟ والمسألة ليست معقدة، بل، تحتاج إلى خطوة، وهذه الخطوة تتبعها بالضرورة خطوات من شانها أن تجسد ثقافة العمل التطوعي وتأصله بالاتجاه المطلوب. وهناك الكثير من الخدمات المباشرة التي يمكن أن نقدمها للناس، وهذا ما لمسناه جلياً وواضحاً خلال مراسيم أداء الزيارة الاربعينية من إعداد برامج تنظيف وتشجير الطرقات الواقعة أمام بيوتنا، وتعبيد الأرصفة والشوارع، وبناء المساكن للمحتاجين، ورعاية الأيتام والمرضى والمعاقين، وتأسيس المراكز الصحية والخدمية الأخرى، وغيرها.

دور زيارة الاربعين في ترسيخ ثقافة العمل التطوعي وقيم التكافل:

من سمات الزيارة الاربعينية انها تعمل على تكريس ثقافة العمل التطوعي وروح المواطنة اذ تمتلك زيارة الأربعين بما لها من خلفية دينية عاطفية فكرية قدراً كبيراً من الدافع على العمل التطوعي يفوق كل الإمكانات المؤسساتية في هذا المجال. فعلى مدى آلاف الكيلو مترات ومن جميع الاتجاهات المؤدية إلى كربلاء ولعدة أيام تجد الشيبة والشباب؛ الرجال والنساء في حركة متواصلة يبذلون جهودا جبارة وأموالا طائلة عن قناعة وإخلاص دون أدنى تذمر أو إحباط ودون أي أجر مادي دنيوي في قبال ما يبذلونه. فضلاً عن تكريس ثقافة التكافل الاجتماعي بما يمثله من قيمة إنسانية عالية قبل أن تكون مبدأً دينياً، فالشارع المقدس قننها وارشد إليها؛ كما ويعد هذا المبدأ من أهم المبادئ التي تضمن للإنسان حد الكفاف على اقل التقادير بما يمنحه حياة كريمة بعيدة عن الذل والامتهان.

فهذه الظاهرة العالمية، عندما تجمع بين العمل التطوعي من جهة والعطاء المادي والروحي اللامحدود ودون مقابل من جهة أخرى فهي بذلك تبلغ ذروة التكافل؛ إذ من أهم السمات التي يكتسبها الانسان في زيارة الاربعين هي سمة العطاء الذي يورث بدوره خصالاً اخلاقية وانسانية كثيرة من قبيل الكرم والجود والايثار وتغييب البخل والانانية والحب المفرط للذات[٢٠].

وهي ايضاً تمنح الفرد الكثير من القيم الانسانية التي تساعد في بناء مجتمع متماسك وتمنحه القدرة على الصمود بوجه كثير من المزالق ومن هذه القيم ترسيخ الإيمان، الحرية، العدالة، الصبر، وغيرها الكثير. لذا فهي تهيئ البيئة الآمنة المستقرة وهذه تعد من متطلبات تفعيل ونجاح التنمية المستدامة، فضلاً عن توافر عنصر التكافل الاقتصادي كمؤشر لمعالجة الفقر كهدف من أهداف التنمية.

فالتنمية المستدامة هي تنمية لا تكتفي بتوليد النمو وحسب، بل توزع عائداته بشكل عادل ايضاً، وهي تجدد البيئة بدل تدميرها، وتمكن الناس بدل تهميشهم، وتوسع خياراتهم وفرصهم وتؤهلهم للمشاركة في القرارات التي تؤثر في حياتهم، هي تنمية في صالح الفقراء والطبيعة، وتوفير فرص العمل، وفي صالح المرأة، أنها تشدد على النمو الذي يولد فرص عمل جديدة ويحافظ على البيئة، تنمية تزيد من تمكين الناس وتحقق العدالة فيما بينهم[٢١].

إنَّ الأمن المجتمعي او بشكل أعم الأمن الانساني بمعناه الأوسع، يشمل أبعد من غياب النزاع العنيف. فهو يضم حقوق الانسان والحاكم الصالح والوصول إلى التعليم والرعاية الصحية وضمان أن يكون في متناول كل فرد ذكراً كان أم انثى ـ الفرص والخيارات لتحقيق قدراته الكامنة. وكل خطوة في هذا الاتجاه هي أيضاً خطوة نحو خفض الفقر وبلوغ النمو الاقتصادي والحؤول دون نشوب النزاعات، أما التحرر من العوز والخوف وكذلك تحرر أجيال المستقبل حتى تتمكن من أن ترث بيئة طبيعية صحية، فكلها تشكل لبنات متداخلة لبناء الأمن الانساني، والأمن الوطني تالياً[٢٢].

يربط نموذج التنمية البشرية المستدامة بين كل من الأمن الانساني والتكافؤ والاستدامة والنمو والمشاركة بما أنها تتيح اجراء تقويم لمستوى الأمن الحياتي الذي يحرزه الناس في المجتمع، فضلاً عن تفسير الامكانات والتحديات التي يمكن أن يصادفها المجتمع في مسيرة تقدمه نحو التنمية البشرية الناجزة والمستديمة، ومن منظور الأمن الانساني ما يعنينا أنه ينبغي على الدول والمجتمعات أن تهتم بتأمين السلام في وجه التهديدات الخارجية، بل عليها أن تُعنى بتأمين ظروف الحد الأدنى للناس ليكونوا آمنين وليشعروا بالأمن في مجتمعاتهم[٢٣].

ان الأمن الانساني يتمم أمن الدولة ويدفع بالتنمية البشرية ويعزز حقوق الانسان، أن ما يكمن في جوهر حماية الأمن الانساني هو احترام حقوق

الانسان[٢٤]. وتوفر الزيارة الاربعينية الاجواء الروحانية الايمانية فضلاً عن توافر عنصر الأمن والأمان، إذ تعمل الزيارة الاربعينية على القضاء على التمييز العنصري وتكريس ثقافة المساواة والتواضع والتذكير بالإخوة الانسانية عامة والاسلامية خاصة بما تستمده من الامام الحسين عليه السلام من قيم دينية ومبادئ انسانية ورصيد فكري رصين ففي توافد الاعداد المليونية ذات الهدف الموحد، تمكنت من إذابة الفوارق العنصرية جميعها بين هذه الأعداد الزاحفة الى كربلاء، اذ تجد فيهم شتى الجنسيات والقوميات والاديان والاتجاهات الفكرية، كما تجد الاسود والأبيض، وقد تساوى الجميع في الملبس، المطعم، المجلس، المنام، الخدمة، بل يسير بعضهم الى جنب بعض في اجواء مشحونة بالأخوة والمحبة ونسيان الذات وكأنهم تخلوا عن جميع الفوارق وانتزع الغل من قلوبهم بمجرد ان وضعوا اقدامهم على طريق كربلاء حتى يبلغ ذلك ذروته عندما تجد ان هذه القوميات والاعراق والالوان كل منها يفتخر بأن يكون خادماً للآخر بروح ملؤها المحبة والعطاء مما يرسخ لثقافة التعايش والسلم المجتمعي.

النتائج:

١. يساهم العمل التطوعي في تقوية أواصر التماسك الاجتماعي بين أفراد المجتمع.
٢. يساعد في تنمية المهارات ويحفز القدرات الفردية كمهارة التواصل والتخاطب والقيادة وتطويرها.
٣. يرسخ العمل التطوعي قيم التكافل الاجتماعي من مساعدة الفئات الفقيرة من المجتمع وخصوصاً خلال أداء مراسيم الزيارة الأربعينية.
٤. من ايجابيات العمل التطوعي زيادة ثقة الافراد بأنفسهم من خلال خدمة المجتمع.
٥. تقوية الانتماء الوطني وتنشيط عملية التنمية من خلال المشاركة في عملية اتخاذ القرارات.
٦. يساهم العمل التطوعي في رفع الروح المعنوية للمتطوع كونه يشعر بأهميته من خلال ما يقدم من خدمة لأفراد المجتمع.

أهم المقترحات التي يمكن أن تحققها الدولة في مجال العمل التطوعي:

١. العمل على تضمين المناهج الدراسية، خاصة في مراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية بعض القيم الاجتماعية والإنسانية التي تركز على مفاهيم العمل الاجتماعي التطوعي وأهميته ودوره التنموي، ويقترن ذلك ببعض البرامج التطبيقية؛ مما يثبت هذه القيمة في نفوس الشباب مثل حملات تنظيف المدرسة أو العناية بأشجار المدرسة أو خدمة البيئة.

٢. دعم المؤسسات والهيئات التي تعمل في مجال العمل التطوعي مادياً ومعنوياً بما يمكنها من تأدية رسالتها وزيادة خدماتها.

٣. إقامة دورات تدريبية للعاملين في هذه الهيئات والمؤسسات التطوعية مما يؤدي إلى إكسابهم الخبرات والمهارات المناسبة، ويساعد على زيادة كفاءتهم في هذا النوع من العمل، وكذلك الاستفادة من تجارب الآخرين في هذا المجال.

٤. تشجيع وسائل الإعلام المختلفة للقيام بدور أكثر تأثيراً في تعريف أفراد المجتمع بماهية العمل التطوعي ومدى حاجة المجتمع إليه وتبصيرهم بأهميته ودوره في عملية التنمية، وكذلك إبراز دور العاملين في هذا المجال بطريقة تكسبهم الاحترام الذاتي واحترام الآخرين.

٥. تدعيم جهود الباحثين لإجراء المزيد من الدراسات والبحوث العلمية حول العمل الاجتماعي التطوعي؛ مما يسهم في تحسين واقع العمل الاجتماعي بشكل عام، والعمل التطوعي بشكل خاص.

٦. العمل على تضمين المناهج الدراسية بعض القيم الاجتماعية والإنسانية التي تركز على مفاهيم العمل الاجتماعي التطوعي وأهميته.

٧. العمل على غرس قيم الإيثار وروح العمل الجماعي التطوعي، وتشجيع المبادرات المجتمعية التطوعية لدى المجتمع من خلال الأسرة، والمدرسة، والجامع والحسينية، ووسائل الأعلام، ومؤسسات الدولة المتصلة بالمواطن.

الهوامش

(١) حافظ، ناهده عبد الكريم، مناهج البحث العلمي، بغداد، ٢٠٠٧، ص٢٠.

(٢) الفوال، صلاح مصطفى، منهجية العلوم الاجتماعية، دار الهنا للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٢، ص٥٨.

(٣) محجوب، محمد عبده، وحيدر ابراهيم، ومحمد عباس ابراهيم، مجدي حميدة، دراسات سوسيوانثروبولوجية، بلا جهة وسنة طبع، ص١٦٣.

(٤) الجوهري،عبد الهادي، قاموس علم الاجتماع، مكتبة نهضة الشرق، مصر، ١٩٨٣، ص٢٢٥.

(٥) عبد الباقي، زيدان، قواعد البحث الاجتماعي، مطبعة السعادة، القاهرة، ط٣، ١٩٨٠، ص٤٤١.

(٦) حافظ، ناهدة عبدالكريم، مصدر سابق، ص٣٤.

(٧) الشاكري، مبرة، حوار: العمل التطوعي في العراق الثروة المجهولة، مقال منشور على شبكة النبأ على الرابط الآتي في ١٧-٦-٢٠٠٨:

http://shakirycharity.org.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية/ ١٨٤.

(١١) القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية/ ٢.

(١٢) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية/ ١٧٧.

(١٣) القرآن الكريم، سورة الزلزلة، الآية/ ٧-٨.

(١٤) عبد الله بن جابر(الراوي)، المحدث: الالباني، المصدر: صحيح الجامع، الصفحة أو الرقم: ٣٢٨٩، على الموقع الالكتروني:
http://www.orar.net

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) الشاكري، مبرة، مصدر سابق.

(١٧) الشيخ عبد الله اليوسف، أشكال العمل التطوعي، مركز الاشعاع الاسلامي، مقال منشور على الموقع بتاريخ ١٢-١١-٢٠١٠
https://www.islam4u.com.

(١٨) الشاكري، مبرة، مصدر سابق.

(١٩) عمر محمد جاسم، العمل التطوعي ودوره في تنمية المجتمع، الحوار المتمدن، ٢٤-١٢-٢٠١١، على الموقع الالكتروني:
www.m.ahewar.org

(٢٠) مقال منشور على الرابط الالكتروني:
https://annabaa.org/arabic.

(٢١) نشرة التنمية البشرية، مفهوم التنمية البشرية المستدامة، بغداد، بيت الحكمة، عدد/ ٢، السنة الاولى، شباط، ٢٠٠٦، ص١.

(٢٢) باتشياني، كارينا، عقبات في وجه الأمن الإنساني، تقرير الراصد الاجتماعي، مونتيفيديو، أوروغواي، ٢٠٠٤، ص١٧ - ١٨.

(٢٣) المصدر السابق، ص١٨.

(٢٤) المصدر نفسه.